شهريات

بقلم رئيس التحرير

عن فقد حبيبين

فقدتُ في الشهر الماضي كائنين حبيبين: أمّي وصلاح عبد الصبور

أما أمّي، فقد شقّ عليّ بالغ المشقّة أن أعود من سفر فأجدها في المستشفى فاقدة الوعي.

وظللت اثني عشر يوماً إلى جانب سريرها أؤمّل أن تفتح عينيها لأتزوّد من بريقها بما كان يُعينني أبداً على المضيّ في دروب الحياة الوعرة.

وطال انتظاري أمام الوجه الهاديء ذي العينين المغمضتين، وكنت أتناول يدها أشدّ عليها، فتُنعش أملي حرارةٌ فيها ما تزال تسري...

ولكني عُدت ذات مساء، فإذا يدها باردة، وإذا وجهها ممتقع.

وتناولت كفَّها أفركها وأمرّر عليها أصابعي علّ بعض الحرارة تنتقل إليها، وإذ أدركت أن محاولتي مُخفقة، صحتُ حزيناً غاضباً: افتحي عينيك يا أمّي! أبتهل إليك أن تفتحي عينيك! ماذا تراني قد فعلت حتى تحرميني اليوم من نظرتك الحانية الحنّانة؟

تلك النظرة، رافقتني طوال حياتي، منذ ان وعيتُ الحياة، تحدوني وتشجّعني على تجاوز العقبات التي كانت تنتصب في طريقي.

كانت هي التي أطلّت من عينيها، ممتزجة ببريق الفخر، حين رأت لأول مرة اسمي على صفحة من إحدى المجلّات يعلو قصة قصيرة كنت قرأتها لها منذ حين. ضمّتني إلى صدرها، بعد أن فرغتُ من قراءة القصة، قالت لي: «لا أدري ما عساها تكون قيمتها، ولكنّي أحبّ كتابتك يا بنيّ!»

وقرّ في هاجسي، منذ ذلك الحين، أنّ عليّ أن أمضي في الكتابة حتى أُرضيَ أمّي، لقاء كلّ ما كانت تقدمه لي.

وظلّت هي حاديتي ومرشدتي ورفيقة همومي، حتى أطلّت «عايدة»، لتحمل عنها قسطاً وافراً من أعبائي، وتضيف إليها أعباء الأسرة التي بدأت تتكوّن.

وعرفت عايدة أيّ أمّ كانت أمّي...

رويت لها كيف حزنت أمي يوم عُدت إلى المنزل، وقد ألبسوني الجبّة والعمّة، فكان أن شهقتْ قائلة:

«ماذا عملتم لي به؟ هو ما يزال في الحادية عشرة.. إنه لم يتمتع بطفولته بعد!»

وكيف بدا بريق الرضى في عينيها، بعد خمس سنوات، حين نزعتُ الزيّ الدينيّ الذي تنبّأتْ بأنني لم أُخلق له.

وكيف حزنت وبكت معي يوم سقطت في امتحان الحقوق، وقالت: «الحق علينا نحن الذين اضطّرك وضعنا المادّي إلى المشاركة في إعالتنا على حساب درسك وتحصيلك!»

وكيف أشرق وجهها حين أبلغتها عزمي، ذات يوم، على التخلّي عن عملي في الصحافة، وعلى السفر إلى باريس لأتابع دراستي المنقطعة وأحضّر للدكتوراه... ولكنها لم تكتئب لاكتئابي واضطرابي أن هذا المشروع معرّض للتعثّر بسبب ضيق ذات اليد، وبسبب أن المنحة الدراسية التي حصلت عليها كانت أقل من أن تفي بالحاجة..

لم تكتئب أمّي، لأنها قامت إلى خزانتها، فأخرجت بعض أساور من ذهب، وقالت: «أليس لمثل هذا الظرف قد احتفظتُ بها؟ خُذها يا بُنيّ، ولو قَرْضاً يَستوفي منه إخوتك نصيبهم بعد موتي، ولا تتراجع عن تحقيق مشروعك!»

وكيف كانت أمي ضميراً لي في باريس، وكيف ظلّت تتابع خطواتي بعد عودتي إلى الوطن وهي لا تني تبارك جهدي وعملي وتدعو لي في حضوري وغيابي، وتكنّ لي قدراً من المحبة والتقدير تحاول دائماً أن تداريه أمام إخوتي، وكيف احاطت زوجتي وأولادنا بعطف خاص. وكيف كانت تعبّر عن إعجابٍ بعايدة بادلتها إيّاه حبّاً عميقاً لم تَشُبْهُ يوماً شائبة.

وحين فقدت عايدة أمّها، انحنت على يد أمّي تقبّلها باكية وهي تقول: أنت الآن أمّي...

وكيف وكيف وكيف...

وتنحني عايدة عليّ وأنا جاثٍ على سرير أمّي، تحاول ان تخفّف من حزني ولوعتي، وهي مثلي حزناً ولوعة، حتى وصل الطبيب الذي كان قد استُدعي على عجل، فرجانا أن نخرج، ليواجهنا بعد دقائق معدودات بالنبأ الفاجع.

دخلت مهدوداً لأصرخ عند سريرها: يا أمي سهيلة! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟!

وانخرطت في بكاء طفل، وسمعت صوت عايدة تقول باكية:

اليوم فقدتُ أمي للمرة الثانية.

يا حبيبتي سهيلة! لولا أنك تعدِّينه تجديفاً وهرطقة، لقلت لك: إغفري لي أنّي لم أغب قبلك!

★ ★ ★

واما انت يا صلاح، فقد كنت أخاف عليك الموت، منذ رأيتك للمرة الأخيرة، قبل سفرك إلى الهند...

كان التشاؤم مما آل إليه وضع مصر يبلغ عندك حدّ اليأس الذي كنت تعبّر عنه بغلاف من سخرية مُرّة تعذّب بها نفسك وتعذّب مستمعيك!

وقد بلغ هذا اليأس ذروته في رسالتك التي استجبت فيها لدعوتي إيّاك للمشاركة في يوبيل «الآداب» الفضي، واستهللتها بأنك لم تمسك بالقلم منذ ثلاث سنوات حتى أصبحت لا تألفه وتوشك أن تخشاه ثم قلت:

«واني لأحاول الآن أن أتلمَّس في نفسي علّة ذلك الإعراض فلا أجد إلاّ الألم الممضّ واليأس اليائس، ولطالما مرّت بي ليالٍ كوّمت فيها امام ناظري أكواماً مما كتبت وكتب زملائي من ابناء هذا الجيل، جيل «الآداب»، وسألتُ نفسي: ترى هل جعلت أشعارنا وقصصنا ومقالاتنا عالمنا أكثر جمالاً أو اقل قبحاً؟ ولطالما ساءلت نفسي: أهذه هي صورة العالم العربي الذي كنا نحلم به في بداية الخمسينات، حين خرجنا في غزوتنا لقهر الشر ودحر الرداءة؟»

وفي تلك الرسالة التي بعثت إليّ بها من نيودلهي، أثرت مكامن حزني بإحياء ذكريات مشتركة لنا، أليمة موجعة، تعود إلى مناسبتين: يوم الانفصال الذي التقينا فيه في بيروت، فمشينا على الكورنيش نبكي الوحدة التي «كانت عوضاً باذخاً من عناء ثقيل» وكانت هي «الحلم النبيل ثم هي الحقيقة المضيئة وسط هذا الظلام المتراكم بعضه فوق بعض طبقات»، وأيام يونيو ١٩٦٧ التعسة التي التقينا فيها في القاهرة، فأبكيتني بدعاباتك السود التي كنت تعلّق بها على الهزيمة، هذه التي عزوتها إلى غياب الديمقراطية والتحديث عن عالمنا العربي المنكود.

وأنا أعرف، يا صلاح، أنك منذ ذلك التاريخ، أي منذ زهاء خمس سنوات، وأنت تسوق آيامك في أسى وخيبة من إخفاق جيلنا في «قهر الشر ودحر الرداءة»، وتتقلّب بين المناصب العالية على كره منك ومضض، رغم كونك برتبة وزير. وأحسب، بل أؤكد، أن الحادث الذي جرى منذ أشهر في معرض القاهرة الدولي للكتاب، وكنت انت مشرفاً عليه، قد حفر في نفسك عميقاً، وأحدث شرخاً في وجدانك لم تستطع الأيام أن تلأمه. لقد كنت رفضت، على ما رُوي لنا، أن تشارك الدولة الصهيونية في جناح لها بالمعرض، فإذا بحاكم مصر يتدخّل شخصياً ويفرض عليك أن تخصّ دولة الاغتصاب بجناح لها مميّز...

ولا شك في أنك، حين عدت إلى منزلك تلك الليلة،

أحسست الصدمة الأولى في قلبك، لأنّ ما حدث في المعرض كان إهانة شخصية لك، فضلاً عن كونه إهانة قومية يعود تاريخها إلى زيارة حاكم مصر لتل أبيب.

لقد أنهيت رسالتك، يا صلاح، بقولك:

«لقد صنعت الآداب جيلاً من الأدباء كان تعس الحظ، فلعلّها تصنع في ربع قرنها القادم جيلاً آخر يكون أسعد من سابقه حظاً. أما أنا، فإنني لائذٌ بصمتي... حتى أجد ما أقول.»

وطوال هذه السنوات الخمس، لم تجد ما تقول.

بلى، ايها الصديق الحبيب، لم تستطع أن تظل لائذاً بصمتك، فقلت كلمة الاحتجاج الأخيرة، قلت الموت.

سهيل ادريس